

المحاضرة العاشرة

ثانياً : المصدر العقلي

تطور المصدر العقلي

من المعلوم ان الاعتماد على العقل في تفسير القرآن امر محمود بشرط ان لا يخالف الضوابط العامة للتفسير ، ولقد كان الجيل الاول من الصحابة رضي الله عنهم يعتمدون على عقولهم في تفسير بعض النصوص التي لم يفسرها النبي الكريم صل الله عليه وسلم حسب اجتهادهم بالرجوع الى اللغة تارة ، والى عادات العرب تارة اخرى ، وخير مثال على ذلك تفسير ابن عباس ومسائل ابن الازرق له ثم حذا حذوهم تلاميذهم من التابعين كمجاهد (ت: ١٠٢) اذا جذور التفسير العقلي ممتدة الى عصر الصحابة والتابعين

وبمرور الزمن تبلورت حركة التفسير العقلي حتى ظهرت في اوائل العصر العباسي مدرسة تفسير القرآن بالعقل ويمثلها المعتزلة ، وتوسعوا كثيراً في التفسير الذي اقاموه على اصول مذهبهم ثم اخضع كثير من آيات الله وبخاصة المتشابه منها الى آرائهم وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع عقيدتهم ، ثم إخضاعهم عبارات القرآن لآرائهم التي يقولون بها ، وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع نحلتهم ولا شك أن مثل هذا التفسير الذي يخضع للعقيدة ، يحتاج إلى مهارة كبيرة ، واعتماد على العقل أكثر من الاعتماد على النقل ، حتى يستطيع المفسر الذي هذا حاله ، أن يلوى العبارة إلى جانبه ، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه "

فالمعتزلة طائفة فضلو العقل على النقل الصحيح الثابت واولوا الآيات القرآنية والنصوص النقلية الاخرى الصحيحة حسب عقولهم القاصرة ووفق آرائهم المخصوصة فوقعوا في الخطأ التفسيرية ، واعطوا العقل حقا أكثر من طاقته حيث فضلوه على الكتاب والسنة

غير ان علماء الامة من المحققين تصدوا للمعتزلة وردوا عليهم وفي مقدمتهم ، العلامة ابن قتيبة اذ انتقدهم انتقاداً مرأ لاذعاً في كتابه "تأويل مختلف الحديث" فقال "وفسروا - أي المعتزلة - القرآن بأعجب تفسير ، يريدون أن يردوه إلى مذهبهم ، ويحملوا التأويل على نحلهم "

وابرز المفسرين الذين اعتمدوا الجانب العقلي هو الزمخشري (ت: ٥٣٨) صاحب تفسير (الكشاف) قال فيه ابو حيان الاندلسي "وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة ، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله ، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري ، فذكرت أشياء من محاسنه ، ثم نهيت على ما فيه مما يجب تجنبه ، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا ، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح "

وخلاصة ما تقدم ان المصدر العقلي مصدر مهم من مصادر التفسير "لان العقل عطية كبرى ونعمة عظيمة من نعم الله وبه يعرف الانسان الفرق بين النافع والضار ، وبه يستطيع التمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، وبه يمتاز عن سائر الحيوانات " قال الحافظ ابن ابي حاتم " فالعقل به يكون الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقة ولا مال أفضل منه ولا يتم دين أحد حتى يتم عقله • والعقل اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب والعلم باجتنب الخطأ "

